JIHĀT-UL-ISLĀM
Vol: 18, Issue: 02, Jan – Jun 2025

OPEN ACCESS
JIHĀT-UL-ISLĀM
pISSN: 1998-4472
eISSN: 2521-425X
www.jihat-ul-islam.com.pk

بلاغة الإيجازو أثرها في نظم الكلام من خلال كتاب مرقاة المفاتيح للملا علي القاري :دراسة تحليلية بلاغية

The Rhetoric of Succinctness and its Impacts on speech as treated in "Mirqāt-al-Mafāteeh" by Mulla Al Qarī

Muhammad Amin *
Ph.D. Scholar, Department of Literature,
Faculty of Arabic, International Islamic University, Islamabad, Pakistan.
Dr. Fazlullah**
Professor & Dean, Faculty of Arabic,
International Islamic University, Islamabad, Pakistan.

ABSTRACT

The rhetoric of Succinctness and its impacts on speech in prophetic sayings as treated in "Mirqāt-al-Mafāteeh" (A commentary on Mishkāāt-al-Masābeeh by Mulla Alī ibn (Sultān) Muhammad Al Qarī). This research in organized in the introduction, preface, explanation of Succinctness literary and rhetorically, the conclusion and the index. It goes without saying that the prophet Hazrat Muhammad SAW, was the most eloquent not only among the Arabs but also in the entire world. No doubt, the fountain of all types of eloquence, rhetoric is Quranic and prophetic eloquence. In the explanation and interpretation of Islamic concepts, issues, the prophet adopted the very effective style to covey the massage to the listener. In this paper, the meaning and significance of prophetic eloquence has been presented and the using of prophetic Succinctness and their impacts on speech in the noble prophetic traditions from the given book has been explained with the examples in details.

***Keywords*:** *Rhetoric, Arabic Rhetoric, Prophetic Rhetoric, Succinctness, Prophetic Succinctness*

فاتحة ومهاد:

من وظائف البلاغة العربية إبلاغ المعنى المنشود إلى المخاطب بكلام واضحة المعنى وسهلة المفهوم، ومطابقاً لمقتضى الحال؛ لأن الكلام البليغ الذي يبلغ المعاني المقصودة التي في ذهن المتكلم إلى عقل المخطاب، وإنما الألفاظ على أقدار المعاني المرادة فقليلها لقليلها، وكثيرها لكثيرها، وسخيفها لسخيفها وشريفها لشريفها، فالبلاغة هي اختيار الكلام حسب المعنى، وتصحيح الأقسام المطلوبة، ومعرفة الفصل من الوصل،

CC BY

وحسن الغزارة عند الإطالة، والاقتضاب عند البداهة، وحسن الإشارة في الكلام المجمل، وانتهاز الفرصة، ووضوح الدلالة على المعاني الخفية، والمعرفة بمواضع الفرصة، والإطناب في غير خطل، والإيجاز في غير عجز.

البلاغة النبوية وأهميتها في العصر المعاصر:

من البداهة أن لكل مقام مقال، ولكل مقال عناصر مقامية وسياقية؛ لأن الألفاظ فقط لا تدل على المعاني المرادة إلا كان المتكلم يستعملها للمخاطب، ولا شك أن النبي الكريم (عليه التحية والتسليم) هو أفصح العربي، ونزل عليه القرآن المجيد بلسان عربي مبين.

فالكلام النبوي هو خير مثال لكل من سمع ألفاظه وأصغى إلى معانيه بل يجد بها في الأذن نغمة لذيذة، ويشعر حلاوتها كحلاوة العسل عند الاستماع والتكلم، تحتوي الأحاديث النبوية على أروع الحكم ورجاجة الأفكار وأصدق الأمثلة؛ لأن البلاغة النبوية التي سجدت الأفكار وحسرت العقول؛ لأن مفرادات النبوة يعمرها قلوب المخطاب تتصل بها بجلال خالقة، وهي محكمة الفصول، ومحذوفة الفضول، بل الألفاظ النبوية هي في إفادتها وإيجازها مفقودة المثل، أنه (عليه التحية والتسليم) كان أفصح العرب على أنه لا يقصد إلى تزيين الكلام، ولا يتكلف القول، ولا تجد له إلا المعاني المنشودة التي هي غاية العقل، ونتاج الحكمة، بل هي إلهام النبوة، ولم يسمع الناس بكلام قط أصدق لفظاً، ولا أجمل وزناً، ولا أعم نفعاً، ولا أعدل وزناً، ولا أكرم مطلباً، ولا أسهل مخرجاً، وأحسن موقعاً، وأفصح عن معناه.

من الحقيقة أن الكلام النبوي ينبع منه أنواع الكلام الإنساني الذي وجد اهتماما كبيرا عند الدارسين البلاغيين الذي قاموا به إلى استكشاف العناصر الأساسية في الخطاب. هدف الخطاب النبوي كان إلقاء المعنى المقصود بتقنيات الإقناع للمخاطب لترسيخ العقيدة، ودحض الفكر، ورفع الشبهات، واستبدال المفاهيم، وتعديل السلول بالسياقات التدوالية والمقامات التواصلية للمخطاب مختلف الأحوال، ويرجع الفضل في اختيار هذا العنوان إلى البلاغة النبوية، وماست الحاجة إلى دراسة الأساليب البلاغية النبوية في التخاطب خاصة ظاهرة الإيجاز وأثرها في نظم الكلام لمعاجة التحولات الشديدة في المجتمع المعاصر، وتقديمه كنموذج سديد رائع لإصلاح الخطاب التقليدي مما أثر أثرا سلبيا على علاقات إنسانية بثقافته الاجتماعية.

يجمع علماء البلاغة قديما وحديثا على أن كلام النبوي (عليه التحيات والتسليمات) قد اتصف بصفات تجيء بالأثر في المخاطب، سواء كان هذا الأثر انفعالا أو فعلا. والكلام النبوي يتركب من العناصر الجوهرية الثلاثة في الكلام: مراعاة المخاطب، والإيجاز والإفهام.

قال العلماء البلاغيين أن كلام الرسول- صلى الله عليه وسلم يتّصف بظاهرة الإيجاز بنَوعَيْه؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - قد فضّله على الفصحاء والبلغاء كلّهم بأنه أعطي جوامع الكلم كقوله - صلى الله عليه وسلم "**بُعثتُ بجوامعِ الكلم** "[1] أو "**أعطيت جوامع الكلم** "[2]"، معنى الحديث الشريف عند الشيخ القاري: قوة إيجاز في اللفظ مع بسط في المعنى فأبين بالكلمات اليسيرة المعاني الكثيرة [3]، ففسّره أهل البلاغة بأن

الإيجاز هو الكلام الموجز قليل الألفاظ وكثير المعاني، فكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم - يُعبّر عن معان كثيرة بكلمات موجزة، ولهذا الأسلوب البديع أسرار فريدة لا مثل لها في نظم الكلام البلاغي؛ فإنه خير للمخاطب والمتكلّم على حد سواء. ولما كان الإيجاز محموداً في كلّ الأحوال لجرده رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في نظم الكلام البليغ للتأثير على المتلقي. وقسّم علماء البلاغة ظاهرة الإيجاز إلى قسمَين: إيجاز الحذف، وإيجاز القصر. وقد تناول الشيخ الملا علي القاري ظاهرة الإيجاز بنوعيه وأثره في نظم الكلام.

نبذة عن حياة المؤلف القاري وكتابه (مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح)

قبل الدخول في صلب البحث، نتحدّث عن نبذة حياة المؤلف القاري، وهو علي بن محمد اشتهر بـ (الملا علي القاري الهروي)، ولقِّب بالقاري؛ لأنه كان ماهراً حاذقاً في القراءات القرآنية. والهروي نسبة إلى البلدة الشهيرة (هراة) هي من أعظم مدن خراسان (حاليا الأفغانستان).

بعد حفظ القرآن الكريم، وتحسّن تجويده، وتعلّم القراءات سبعة عشرة هاجر إلى مكة المكرة لحصول العلم، وقرأ على العلماء الكبار فيها حتى صار عالماً نابغ العصر، وكان يعد نبراساً في التحقيق والتأليف، وعالما نابغاً في المسائل الكلامية، وفي التفسيرية وأصولها، والفقهية وأصولها في الأحاديث النبوية، وكذلك كان أديباً وبلاغياً ولغويا ونحوياً. وله مُصنفات متعددة مختلفة الموضوعات، وعددها يزيد من مائتين وستين مؤلفاً.

والكتاب (مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح) من أهم مؤلفاتات القاري، وله منزلة رفعية عند العلماء والباحثين في مختلف الأوساط العلمية من العقيدة والحديث والفقه، والتفسير، وكذلك هو خير دليل في الفنون الأدبية كالبلاغة والصرف والنحو. وهذا الكتاب يشتمل على 6294 أحاديث.

الإيجاز لغة واصطلاحا و أثره في نظم الكلام:

الإيجاز في الكلام من الأساليب الراقية، يقول أبو هلال العسكري الإيجاز هو:تقليل الألفاظ وتكثير المعاني[4]، عند البعض: أن تكون الألفاظ أقل من المعاني التي تراد، فالإيجاز إذن هو قصر الألفاظ مع وفاء المعاني، وليس الإيجاز قلة الألفاظ وحسب، بل لا بد من أن تكون المعاني وافية كاملة وافرة. ومن أسراره البلاغية حسن الاختيار، وتقريب الفهم، ودقة التفكير؛ فلا يؤتى الإيجاز إلا من رُزق الإرهاف في الإحساس البياني، والإدراك الواعي لأحوال المخاطبين، والوحدة في الذهن، والمعرفة التامة بدلالة المفردات وأساليبها في نظم الكلام. وعند الشيخ القاري الهروي غرض إيجاز الكلام في إشباع من المعنى، فالكلمة قليلة الحروف منها تتضمن كثيراً من المعاني، وأنواعاً من الكلام[5].

أولاً: إيجاز الحذف و أثره في نظم الكلام

إيجاز الحذف هو: حذف كلمة أو جملة أو أكثر مع قرينة تعين المحذوف كحذف المبتدأ وبقاء الخبر أو العكس أو حذف المضاف أو المضاف إليه وهو الكثير أو الصفة أو موصوف وغير من الدلائل[6].

ولا شك أن بلاغة الإيجاز في كلام رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لا مثل لها عند الفصحاء والبلغاء بدون مبالغة. قوله – صلى الله عليه وسلم -:"**إلى هرقل عظيم الروم** [7]"، وما قال (ملك الروم)؛ لأنه هو ما كان مالكاً حقيقياً ولا ملك له في الأصل، ولا لغيره بحكم الدين الإسلامي، ولا سلطنة لأحد إلا لمن يتولى بحكم خاتم الرسل – عليه الصلاة والسلام- أو من أذن الله تعالى ورسوله له، وإنما ينفذّ من تصرف أهل الكفار ما فيها الحاجة، وما قال إلى هرقل فحسب، بل أتى بنوع من الملاطفة في التخاطب عند إرسال الرسالة إليه، فقال (عظيم الروم) أي الذي يعظمونه ويقدمونه، وأمر الله - سبحانه وتعالى - بإلانة القول في القرآن الكريم، لمن يدعى إلى الدين الإسلام، فقال:"**فَقُوْلاَ لَه قَوْلاً لَيِّناً** "[8].

قال الشيخ الملا علي القاري هذا الحديث المبارك يدل على استحباب استعمال الإيجاز وتحري الألفاظ الجزلة؛ فإن قوله - صلى الله عليه وسلم - هذا: في غاية الإيجاز والبلاغة وجمع المعاني، مع ما فيه من بديع التجنيس [9]، وفيه دليل على استخدام الأسلوب البلاغي الموجز وتحري الألفاظ الجزلة عند دعوة الكفار إلى الله تبارك وتعالى؛ لأن الكلمة البليغة تؤثر القلب ويستمع المخطاب كلام المتكلم بكل تركيز وإنصات. فاستخدم خاتم الأنبياء والمرسلين (عليه التحيات والتسليمات) هذه الكلمة (عظيم الروم) البليغة الفصيحة الموجزة واضحة المفهوم والمعنى المراد بأسلوب رائع ليّن لغرض بلاغي وهو إيصال دعوة الحق إلى ملك الروم.

من صور بلاغة الإيجاز بأن يكون بحذف الفاعل، وهذا ما نلحظه في هذا الحديث المبارك، قوله- صلى الله عليه وسلم -:"**بني الإسلام على خمس** [10]". في الحديث الشريف استخدمت كلمة (بُني) فعلا مجهولا، وحُذف الفاعل لغرض بلاغي وهو الاختصار والإيجاز، وعند علماء البلاغة مدار الإيجاز على الحذف، وذلك إنما يكون بحذف ما لا ينقص من البلاغة ولا يخل بالمعنى، بل قال علماء البلاغة: لو ظهر المحذوف لنزل قدر الكلام عن علو بلاغته[11]، ولا بد من الدلالة على ذلك المحذوف، فالفعل المجهول يدل على حذف الفاعل بقرينة، فقال الشيخ القاري: حيث حذف الفاعل لشهرته وتعيينه في الحديث مما يجعل الإيجاز أجمل [12]. وكما قال علماء البلاغة: في بعض الأحيان يكون الإقصار والاختصار أنجح في المقال، وأبلغ في الإيصال؛ لأن البلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال [13] والكلام الموجز يؤثر القلوب والعقول في تلقي كلام المتكلم.

أحياناً تكون بلاغة الإيجاز بحذف الجار والمجرور من الظرف كما في كلمة موجزة "**ذات يوم**"[14]. وردت هذه الكلمة في الأحاديث النبوية في (مرقاة المفاتيح) أكثر من ثلاثين مرة، تحدّث الشيخ القاري عن دلالتها البلاغية حسب السياق في كل مكان؛ لأن الحذف أبلغ من الذكر، والإعجاز في الإيجاز [15] بقوله: (ذات يوم) هو ظرف، وزيادة (ذات) للتأكيد ولدفع توهم التجوز بأن يراد باليوم مطلق الزمان لا النهار كما في قولك: رأيت ذات زيد، إذ تقديره: يوماً من الأيام، أو ساعة يومٍ، أو أوقات يومٍ، أو في نهار، فحذف الجار والمجرور لدلالة المعنى القائم عليه وظهور المعنى المراد كما صرّح بقوله: (ذات يوم) أقحم ذات يوم لدفع المجاز أي نهاراً[16]. والسر البلاغي في استخدامه الاختصار والإيجاز والانتقال لما هو أهم إذ ليس المهم في سياق

الحديث تحديد أيّ وقت كان ذلك المشهد بل المهم تفاصيل وذكر ما جرى من إيضاح تأكيد كما من حديث جبريل للرسول وتبليغه شرائع الله تعالى، فالإيجاز أعطى أهمية كبرى لما بعده للتركيز إليه.

وكذلك حذف الجار والمجرور ومتعلقه يكون (فعل الأمر)، كقول سيد العرب والعجم - صلى الله عليه وسلم -:**" قل آمنت بالله ثم استقم "**[17] أي أن تستقيم على أعمال الطاعات، ويفهم من معنى (استقم) كذلك الانتهاء عن جميع المخالفات؛ إذ لا تأتي الاستقامة مع شيء من الاعوجاج؛ فإنها ضده، وإيجاز الحذف وقع عند ما تم حذف الجار والمجرور مما جعل لفظ (استقم) تعطي معنى عاما لكل شيء يصدق عليه أنه قد استقام بلا تحديد كما يقول الشيخ القاري بقوله:ثم استقم، هذا مقتبس من قوله تعالى **"إِنَّ الَّذِيْنَ قَالُوْا ربنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوْا "**[18] يعني قال ربنا الله تبارك وتعالى واستقم على امتثال الأوامر، وقم على اجتناب الزواجر؛ إذ لا تحصل الاستقامة مع شيء من الاعوجاج، قال الشيخ القاري إن: هذا القول جامع لجميع أنواع التكاليف[19]، لأن هذا موجز غاية الإيجاز بليغ فصيح جامع عديم النظير ومضرب المثل.

ومن بلاغة الإيجاز أن تكون بحذف الجار والمجرور للدلالة على العموم، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -:"**والصلاة نور ، والصدقة برهان، والصبر ضياء "**[20] أي الصلاة نور في الدنيا ولظلمات القيامة بأن تنير للعبد دربه حتى لا يتخبط في الشهوات وتكبله المعاصي والآثام، وكذلك نور في يوم الآخرة حيث تنير عليه ظلمات قبره وتضيء له دربه الموصل إلى جنة الله تعالى وخلده. وقوله - صلى الله عليه وسلم -:" **الصدقة برهان "**[21] أي برهان واضح على صحة إيمان العبد وتصديقه بموعود ربه وحجة له عند خالقه تدافع عنه يوم القيامة ويفزع إليها كما يفزع إلى العبد، فحذف الجار والمجرور عند المؤلف للدلالة على العموم [22]، والتعميم المعنوي يحتوي على الأعمال الدنيوية والأخروية والجملة الاسمية تدل على الدوام والاستقرار.

وبلاغة الإيجاز بحذف المفعول به لتتوافر العناية والتركيز على إثبات الفعل للفاعل غير منظور إلى المفعول، في قوله- عليه الصلوات والتسليمات -:**" الحلال بين والحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير**[23]**"**. فهنا وقع إيجاز حذف حيث تم حذف المفعول به والتقدير: (لا يعلم حكمها أو حقيقتهن). فكل حذف للمفعول وراءه أغراض بلاغية يقتضيها المقام، ولا بد من ملاحظة السياق والسباق [24]، والسر البلاغي في وقوع هذا المحذوف أن سبب الوقوع في تلك المشتبهات جهل الناس بها والتساهل من الحذر منها، ويقول المصنف الهروي: كأن الحذف يعطي دلالة ذلك الوقوع وهو الجاهل، فالمناسبة بين الجاهل والتساهل في الاقتراب واضحة[25].

وكذلك قول سيد الرسل -عليه التحية والتسليم -:" **إن الله -تبارك وتعالى- كتب الإحسان على "كل شيء"، فإذا قتلتم فأحسنوا "القتلة"، وإذا ذبحتم فأحسنوا "الذبح"، وليُحدَّ أحدكم شَفْرته، ولْيُرِح ذبيحته"** [26] حيث تم حذف المفعول به، والتعبير:إذا قتلتم المستحقة قصاصاً أو حداً وإذا ذبحتم

الحيوان، وقال المؤلف القاري إنا: نرى أن تم الحذف بناء على الدلالة عليه. هذا الحديث عام في الحكم في كل ذبح من الذبائح وقتل من المقتوليين حداً أو قصاصاً ونحو ذلك، وهذا الحديث من جوامع الكلم[27].

وكذلك تكون بلاغة الإيجاز بحذف المفعول الثاني كما في الحديث الشريف الآتي:"**وإيتاء الزكاة والحج "**[28]، حيث تم حذف المفعول الثاني والتقدير:إيتاء الزكاة مستحقيها أو إعطائها وتمليكها لمصارفها، والمراد بها الصدقة المكتوبة أي لأداء النسك، وكذلك اللام في كلمة (الحج) عوض عن المضاف إليه أي حج البيت. كما ورد في قوله تعالى "**وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ** "[29] أي أهلها. عند المؤلف الهروي فيه إيجاز حذف، والسر البلاغي كون ذلك مُتعيّن؛ إذ أنّ الزكاة لا تعطى إلا لمستحقيها، والمقام يدل على توكيد ذكر الزكاة وليس هناك بيان تفاصيلها أهلها، وكذلك الحج يتعلق ببيت الله - سبحانه وتعالى -[30].

أحياناً تكون بلاغة الإيجاز بحذف المفعول المطلق، كما نجد قول الرسول الأعظم - صلى الله عليه وسلم - :"**لَا يُؤْمنُ أحدُكم حتّى أكونَ أحبَّ إليْه منْ والِدِه، وولَدِه، والنّاسِ أجمعين** [31]" أي لا يؤمن أحدكم إيماناً كاملاً تاماً حتى يحب لأخيه في الإسلام ما يحب لنفسه مما يجعل الأنانية وحب الذات أمراً مكروهاً ومستبعدا في حياتنا ومفهوم هذه الآية الكريمة مقتبس من قول الله تعالى وتبارك "**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِيْنَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ** "[32]. ولا نجد هذا المعنى عند المؤلف إلا لوقوع إيجاز الحذف هنا زيادة الاعتناء به وتحصيله وكأن معنى الحديث ليس الإيمان الكامل إلا بالحب للآخرين لما تحب لنفسك؛ فالحذف هنا أضاف في ازدياد معنى الطلب الصادق للإيمان الكامل والبحث عنه وكأنه منفي عنه[33].

وتكون بلاغة الإيجاز بحذف المضاف إليه وإنابة المضاف محلّه [34] كما في قول سيدنا النبي الصادق الأمين- :"**مَنْ أحْدَثَ في أمْرِنَا هذَا مَا ليْسَ مِنْه، فَهُوْردٌّ** "[35] حيث تم حذف المضاف إليه وإنابة المضاف محله؛ لأنه هو المقصود والمشود، ويكون المعنى: أن كل شيء مخالف لما جاء به رسول الله – صلى الله عليه وسلم -، فهو مردود وغير مقبول على صاحبه، فكلمة (رد) أفادت معنى كثيرا مع قلة اللفظ. قال ابن حجر: أي مردود على فاعله لبطلانه من إطلاق المصدر على اسم المفعول، وفيه تلويح بأن ديننا قد كمل وظهر كضوء الشمس[36]، وأشار المؤلف إلى هذا بقوله: أي مردود عليه [37]. أي على الفاعل.

وكان سيدنا عبد الله ابن عمر – رضي الله تبارك عنهما - يقول:"

إذَا أمسيْتَ فلا تنْتَظِر الصّباحَ، وإذَا أصبَحْتَ فَلا تنْتَظِر المَسَاء، وخُذْ منْ صِحَّتك لمرَضِكَ ومنْ حَيَاتِك لمَوْتِكَ "[38]

وهو إيجاز حذف حيث تم حذف المضاف في الكلمتين (الصباح والمساء) أي قدوم الصباح أو قدوم المساء لدلالة الظرف عليه في السياق، ولأن المقام مقام وعظ وإرشاد، فجعل التركيز في اللفظ حتى يعطي المعاني المرجوة؛ إذ أن كلمة (قدوم أو انتظار) مخالفة لمعنى الزهد المشار إليه في الحديث الشريف عند المصنف القاري: ليكن الموت في إمسائك وإصباحك نصب عينك، مقصورا للأمل الصادق، ومبادرا للعمل النبيل، غير مؤخر عمل الليل إلى عمل النهار، وعمل النهار إلى عمل الليل[39]. فالحذف دليل الإيجاز لخلق الإعجاز في الكلام البليغ.

ثانياً: إيجاز القصر و أثره في نظم الكلام

تحدّث الشيخ القاري الهروي عن أسرار البلاغة النبوية مفسرا الحديث المبارك: كما ورد عن الصحابي الجليل سيدنا أنس – رضي الله تبارك عنه – أنه يقول، كان النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم –:"**إذا تكلّم بكلمة أعادها ثلاثاً حتّى تفْهم عنه "**[40]. أي أن كلام النبي المجتبى (عليه الصلاة والسلام) بينه فصل رائع يفهمه كل من سمعه وأنصت إليه؛ لأن السامع بفطرته أميل إلى ما قلّ الكلام وكثر المعنى، دون إعادة ومعاودة. تجد هذه الصفة الممتازة في بلاغة الخطاب النبوي يتطلبها مقام التعليم والتربية والترشيد، والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى.

ومن الملاحظة في الأحاديث النبوية كلام اختزلته ألفاظ قليلة واحتوى على معاني كثيرة وكبيرة، بل جرّ هذا الأسلوب إلى قاعدة مطردة عند المسلمين وصار مستعملا ومثلا سائراً[41].

وكذلك جاء في رواية سيدنا أبي هريرة عبد الرحمن - رضي الله تعالى عنه - عن النبي المصطفى – عليه الصلوات والتسليمات - قال:"**الإيمان قيَّد الفتك لا يفتك مؤمن** "[42]. قال المصنف القاري: هذا الحديث الشريف من جوامع الكلم التي خص النبي الكريم - صلى الله عليه وسلم - نفسه بها عرفه من ذاق معرفة نظم الكلام وخواص التراكيب، واعتلى ذروة علم البيان والمعاني[43].

من الحقيقة أن إيجاز القصر فهو تضمين الألفاظ القليلة معاني كثيرة من غير حذف، وهو أعلى حالات الإيجاز مكاناً، كقوله تعالى "**وَلَكُمْ فِيْ القِصَاصِ حَيَاةٌ "**[44]، وكما أشار الشيخ القاري إليه بقوله: ولما فهم - صلى الله عليه وسلم - من السؤال بقرينة الحال موضع الإشكال لما فيه من الإجمال اقتصر على مقدار الحاجة من المقال، كما سُئل عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – عن هذه الآية المباركة " **وإذْ أَخذَ رَبُّكَ منْ بَنِيْ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِم ذُرِّيَّتَهُمْ "**[45]، قال سيدنا عمر الفاروق (رضي الله تعالى عنه) سمعت نبي الله المجتبى - عليه الصلاة والسلام - يسأل عنها، فقال:" **إن الله (تعالى) خلَقَ آدمَ، ثم مسح ظَهْرَه بيمينه، فاسْتَخْرج منه ذرية؛ فقَالَ: خَلَقْتُ هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره بيده فاستخرج بيده منه ذرية، فقال خلقت هؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون"**[46]. في الأصل أن الإيجاز قصر هو ما لا حذف فيه [47]، تحدّث الشيخ القاري عنه بقوله: المراد من الإخراج توليد بعضهم من بعضهم على مر الزمان، واقتصر في الحديث على آدم؛ لأنه هو الأصل. وفيه أن التوليد على المر الزماني ينافي الميثاق الموصوف بالآتي، فكيف يكون الحديث تفسيرا للآية الكريمة؟ ثم أجاب المؤلف هذا السؤال بقوله: ثم سنح لي بالباب أنه يمكن أن يقال: إنما اقتصر في الآية على الذرية لظهور أمر آدم بالأدلة النقلية والعقلية خصوصا من الإضافة إلا بنية؛ كما هو مقتضى الفصاحة القرآنية، والبلاغة الفرقانية الموصوفة بالإعجاز التي من جملة دلالالته صنعة الإطناب والإيجاز[48].

وكذلك تكون بلاغة إيجاز القصر بذكر الإجمال غير المخل في المعنى المراد، كما قال رسول الله العظيم - صلى الله عليه وسلم -: **" كل النّاس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها "**[49]، والمعنى كل أحد يسعى

ويجتهد في الدنيا ويرى أثر عمله في العقبى. قال الإمام الطيبي: وهو مجمل تفصيله، قوله:حظها بإعطائها وأخذ عوضها، وهو عمله وكسبه، فإن عمل خيراً فقد باعها وأخذ الخير عن ثمنها، وهذا لا يخفى ما فيه من الإيجاز البديع حيث طوى كثيراً من الألفاظ إذ المعنى فكل الناس يغدو لمصالحه فبائع نفسه بالأعمال الصالحة فمعتقها من العذاب، فبائع نفسه بالأعمال السيئة فموبقها بالعذاب. فهذا إيجاز قصر دلت عليه ألفاظ يسيرة حاملة بين جنباتها معاني فياضة مشعة. هذا هو الذي ما جاء به الشيخ القاري بقوله: الفاء للسببية، وهو خبر بعد خبر، ويجوز أن يكون بدل البعض من قوله(فبائع نفسه)، وقوله:(مهلكها) بأن باعها وأخذ الشر عن ثمنها[50].

إن الشيخ الملا علي القاري تحدّث عن ظاهرة الإيجاز، وله يد طولى في علوم البلاغة حيث يأتي برأي، ويرد على آراء الآخرين بالترديد والترجيح كما نجد في بيان الحديث، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم –:" **تعَوّذوْا بالله منْ جَهْد البلاء، ودَرْكِ الشَّقَاء، وسُوْء القضاء وشَمَاتَةِ الأعْداء** "[51]. عُلم أنّ الكلمات الأربعة جامعة مانعة لصرف البلاء، وأن بينها عموماً وخصوصاً من وجه، كما في كلام البلغاء والفصحاء ويقول الهروي: وقد أخطأ ابن حجر حيث قال: ولكونه مقام الإطناب لم يؤثر فيه تداخل بعض معاني ألفاظه وإغناء بعضها عن بعض. وأنت عرفت أن هذا كلام في غاية من الإيجاز، بل قارب محلا من الإعجاز، فقوله: مقام الإطناب ليس في محل الصواب[52].

قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم -:" **نمْ كنَوْمة العُرُوْس الذي لا يُوْقظُه إلا أحبّ أهْله إليْه حتّى يبْعَثه الله منْ مَضْجَعه ذلِكَ** "[53]. يقول الشيخ القاري: قوله: (نم) متضمن للجواب، ومغن عن الإطناب [54].

قال سيد الكون أفصح العرب والعجم – عليه التحيات والتسليمات -:" **إنَّ مِن البيَانِ لَسِحْراً** "[55]، قال البعض: كأن المتكلم يسحر بمهارته في البيان وتفننه في البلاغة وترصيف النظم يسلب عقل السامع ويشغله عن التفكر فيه والتدبر له حتى يخيل إليه الباطل حقاُ والحق باطلاً [56]. عند المؤلف: معناه من البلاغة في القول ما يعمل عمل الساحر فيؤثر في النفس ويحملها على الإقدام والتسرع خير دليل على بلاغة رسول الله – صلى الله عليه وسلم واستعماله للإيجاز في صورة يعجز أرباب البلاغة والبيان عن مثله[57].

قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم -:**"ومن يسَّر على مُعْسر يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة** [58]" إيجاز قصر، قال المؤلف الهروي: فقد جمعت هذه الكلمة كل أنواع التيسير الممكنة من الإبراء والهبة والتصدق عليه أو تأجيل الدين حتى يتيسر له الوفاء أو حصول الشفاعة عند ما يطلبه أو دلالة المستفتي فيما وقع فيه من ضائقة فسبحان من أجرى البيان والفصاحة على لسان نبيه وطوعت له الكمات والتعابير أحسن مقام.

قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم -:**"وما تقرّب إلي عبدي بشيء أحبَّ إلي مما افْتَرَضْتُ عليه "**[59]، فهذا إيجاز قصر فكلمة (شيء) بدون الألف واللام أي التعريف، تمثّل كل شيء من أنواع الطاعات والتقرب لله تعالى من العبادات كلها كأداء الصلوات المكتوبة والنافلة، والصيام والقيام في الليل، وصالح

الأعمال كلها، ومعلوم أن النكرة تفيد العموم، وهكذا كان الإيجاز معطيا معنى (لكل له اجتهاده فيما يريد من الطاعات) [60]، لأن من شأن العبد التقرب إلى سيده رب العالمين لأصناف طاعته وأنواع خدمته بشيء من الأعمال لأداء ما وجب عليه من امتثال الأوامر واجتناب الزواجر.

ظهر من هذا أن الإيجاز البلاغي النبوي عديم النظير في خصائص التراكيب اللفظية ولالاته المعنوية من حيث مفرداته المختارة المتداولة سهلة المفهوم ومطابقة لأحوال المخطاب المتشتتة، وبديعة في الإيصال إلى الهدف المنشود في النص، ولا شك أن كل لفظة في الكلام النبوي لا نظير لها في بيان مسالك الإنسان ومذاهبه، وقدراته وطاقاته؛ لأن البلاغة هي مراعاة الأحوال والمقامات فكأن البلاغة النبوية أصل من أصول البلاغة القرآنية.

نتائج البحث:

بعدة رحلة وجيزة في البلاغة النبوية في مرقاة المفاتيح للملا القاري، ودراسة ظاهرة الإيجاز وأثرها في نظم الكلام عند الهروي، وصل الباحث إلى النتائج التالية:

1. اعتمد رسولنا الصادق الأمين (عليه الصلوات والتسليمات) في تخاطبه البديع الأوعائي البلاغية يكون كلامه أكثر تأثير على المخاطب في فهم المعاني والإيصال بها إلى الغرض المنشود.
2. إن نسق البلاغة النبوية منفرد وبديع لا مثل له في استخدام العبارات الوجيزة والمبسوطة نظراً أحوال المخطاب؛ لأن الكلام النبوي يشتمل على جزل التراكيب، ومحكم الوضع، ومسدد اللفظ، بأنك لا ترى فيه لفظة مستدعاة لمعناها، ولا حرفاً مضطرباً، ولا إحالة، بل هو متصف من حكمة القول، وإصابة السر ودنو المأخذ، وسمو المعنى بالصنعة المحكمة والصقل البديع.
3. من الواضح أن الإيجاز النبوي يشتمل على الأسلوب الرائع والأداة الفعالة لإيصال المعاني المقصودة إلى المخاطب لطبيعة الرسالة النبوية على ترغيب المخاطب في التقرب إلى الله سبحانه وتعالى، والترهيب من عصاينه وما يقرب إليها؛ لأن الإيجاز هو الإعجاز.
4. كل المباحث التي درسناها عن بلاغة الإيجاز وأثره في نظم الكلام في الأحاديث النبوية عند القاري في كتابه مرقاة المفاتيح وهي خير دليل على الأساليب البلاغة النبوية، فكل ظاهرة من الإيجاز تحتاج إلى دراسة مستقلة. وكذلك هناك حاجة ماست إلى إبراز النواحي الجمالية وأثرها في نظم الكلام في الأحاديث النبوية؛ لأنها حقيقة من الحقائق المحكمة الثابتة، وبديهة من البديهات، ولا شك في أنها تستطيع تعالج عواصف الإلحاد والعولمة لإنقاذ الأجيال الناشئة من الزائل الإباحية والمادية في العصر الحاضر إلى التخلق بالأخلاق النبوية الشريفة.

****

الهوامش والمصادر

1. Al-Bukhārī, Abū ʿAbdullāh Muḥammad ibn Ismāʿīl. *Ṣaḥīḥ al-Bukhārī*. Ed. Muḥammad Zuhayr ibn Nāṣir al-Nāṣir. 1st ed. Beirut: Dār Ṭawq al-Najāt, 1422 AH, vol. 2, p. 36, ḥadīth no. 7013.
2. Al-Harawī al-Qārī, Al-Mullā ʿAlī. *Mirqāt al-Mafātīḥ Sharḥ Mishkāt al-Maṣābīḥ*. 1st ed. Beirut: Dār al-Fikr, 2002, vol. 9, p. 3575, ḥadīth no. 5748.
3. Ibid., vol. 9, p. 3675.
4. Al-ʿAskarī, Abū Hilāl. *Kitāb al-Ṣināʿatayn*. Cairo: Dār Iḥyāʾ al-Kutub al-ʿArabiyya, 1371 AH, p. 181.
5. Al-Harawī al-Qārī, Al-Mullā ʿAlī. *Mirqāt al-Mafātīḥ*, vol. 9, p. 3675 (Chapter on the Merits of the Leader of the Messengers, peace be upon him).
6. Al-Ṭālibī al-ʿAlawī al-Ḥusaynī, al-Muʾayyad biʾllāh Yaḥyā ibn Ḥamzah. *Al-Ṭirāz fī Asrār al-Balāghah*. 1st ed. Beirut: Al-Maktabah al-ʿUnṣuriyya, 1423 AH, vol. 2, p. 49 (Chapter 6: Conciseness and Omission).
7. Al-Qārī, *Mirqāt al-Mafātīḥ*, vol. 6, p. 2526 (Chapter: Writing to Disbelievers).
8. *Qurʾān*, Sūrah Ṭāhā, 20:44.
9. Ibid., ḥadīth no. 4, vol. 1, p. 67 (Book of Faith).
10. Al-Ḥusaynī al-ʿAlawī, Yaḥyā ibn Ḥamzah. *Al-Ṭirāz*, vol. 2, p. 51 (On Reiteration and Resumption).
11. Al-Qārī, *Mirqāt al-Mafātīḥ*, vol. 1, p. 67.
12. Al-Ṣaʿīdī, ʿAbd al-Mutaʿāl. *Bughyat al-Īḍāḥ li-Talkhīṣ al-Miftāḥ fī ʿUlūm al-Balāghah*. 17th ed. Cairo: Maktabat al-Ādāb, 2005, p. 25.
13. Ibid., ḥadīth no. 2, vol. 1, p. 51.
14. Al-Hāshimī, Aḥmad ibn Ibrāhīm. *Jawāhir al-Balāghah fī al-Maʿānī wa-al-Bayān wa-al-Badīʿ*. Beirut: Al-Maktabah al-ʿUnṣuriyya, vol. 1, p. 198.
15. Al-Qārī, *Mirqāt al-Mafātīḥ*, vol. 1, pp. 251, 379, 745.
16. Ibid., ḥadīth no. 15, vol. 1, p. 83.
17. *Qurʾān*, Sūrah Fuṣṣilat, 41:30.
18. Ibid., vol. 1, p. 83.
19. Ibid., ḥadīth no. 281, vol. 1, p. 341 (Book of Purification).
20. Ibn Manẓūr, Muḥammad ibn Mukarram. *Lisān al-ʿArab*. 3rd ed. Beirut: Dār Ṣādir, 1414 AH, vol. 13, p. 51 (Section: Letter Bāʾ).
21. Al-Qārī, *Mirqāt al-Mafātīḥ*, ḥadīth no. 2762, vol. 5, p. 1891 (Chapter on Lawful Earnings).
22. Al-Ḥamzāwī, Abū al-ʿAlāʾ Muḥammad. *Masāʾil ʿIlm al-Maʿānī fī Ḥāshiyat al-Qūnawī ʿalā Tafsīr al-Bayḍāwī*. PhD thesis, under supervision of Dr. Fawzī al-Sayyid ʿAbd Rabbuh. Beirut: Al-Maktabah al-Shāmilah, vol. 1, p. 335.
23. Ibid., ḥadīth no. 4073, vol. 6, p. 2649 (Book of Hunting and Slaughtering).
24. *Qurʾān*, Sūrah Yūsuf, 12:82.
25. Ibid., ḥadīth no. 7, vol. 1, p. 72.
26. *Qurʾān*, Sūrah al-Aḥzāb, 33:6.
27. Al-Qārī, *Mirqāt al-Mafātīḥ*, vol. 1, p. 71.
28. Al-Ṣaʿīdī, *Bughyat al-Īḍāḥ*, p. 335.
29. Ibid., ḥadīth no. 140, vol. 1, p. 221.
30. Al-Manāwī, Zayn al-Dīn. *Fayḍ al-Qadīr Sharḥ al-Jāmiʿ al-Ṣaghīr*. 1st ed. Egypt: Al-Maktabah al-Tijāriyya al-Kubrā, 1356 AH, vol. 6, p. 36.
31. Ibid., ḥadīth no. 1604, vol. 3, p. 1158 (Chapter: Desiring and Mentioning Death).

32. Ibid., ḥadīth no. 208, vol. 1, p. 291 (Book of Knowledge).
33. Ibid., ḥadīth no. 3548, vol. 6, p. 2319.
34. *Qurʾān*, Sūrah al-Baqarah, 2:179.
35. *Qurʾān*, Sūrah al-Aʿrāf, 7:172.
36. Ibid., ḥadīth no. 95, vol. 1, p. 170.
37. Al-Sanīkī, Zayn al-Dīn Abū Yaḥyā Zakariyyā ibn Muḥammad. *Aqṣā al-Amānī fī ʿIlm al-Bayān wa-al-Badīʿ wa-al-Maʿānī*. Ed. Dr. Jamīl ʿUwāyḍa. Beirut: Al-Maktabah al-Shāmilah, 2009, p. 32.
38. Ibid., ḥadīth no. 2457, vol. 3, p. 1704.
39. Ibid., ḥadīth no. 130, vol. 1, p. 211 (Chapter: Affirmation of Grave Punishment).
40. Ibid., ḥadīth no. 4783, vol. 7, p. 3011 (Chapter: Eloquence and Poetry).
41. Ibid., ḥadīth no. 204, vol. 1, p. 286.
42. Ibid., ḥadīth no. 2266, vol. 4, p. 1544.